

مكانة المرأة في الحضارات

د. نوال بورحلة

جامعة الجزائر 2

Résumé :

Dans chaque période historique la « Femme » était toujours un sujet important, un sujet polémique ; en raison de deux points de vues opposants : l'un rejette le rôle de la femme et lui attribue une valeur inférieure vis-à-vis de l'homme, et l'autre croit aux capacités physiques et morales de la femme car c'est un être humain semblable à l'homme.

Donc cet article a pour but de décrire la valeur de la femme à travers les périodes historiques.

Mots clés : femme, valeur, périodes historiques

تمهيد :

في البدء أود أن استهل هذه المداخلة بسؤال نحاول من خلاله كشف حجم التناقض و الهوة أو الاعترا ب بالمعنى الفلسفي الذي يربط المرأة بكيان له حضور و وجود بمختلف المفاهيم و القوانين و العادات و التقاليد التي أسهمت بالقدر الكبير في التقليل أو رفع من مكانة المرأة في المجتمع، إن السؤال الذي نطرحه هو كالتالي: ما هي مكانة المرأة في الحضارات؟ و ما هي القيمة الممنوحة لها؟

عندما نتجول عبر الحضارات و نفتش في بنية تفكير كل حضارة عن مفهوم المرأة، لا نعثر على اتفاق موحد حول مفهوم المرأة، فهي تتأرجح بين المقدس و المندس، بين المرأة المثال الرمز و الرامز لقوى الخصوبة و استمرارية الحياة في صورة الحب المثالي و الأمومة المنتجة، و المرأة الدونية التي تعامل بدونية و تهميش، بين الإله المرأة و الشيطان، و لعل التساؤل الذي يتبادر إلى الذهن لماذا هناك تضارب حول مفهوم المرأة كإنسان؟ لماذا هناك أحكاما مطلقة على المرأة؟ فهل المرأة بهذل المعنى مشكلة؟ هل المرأة مشكلة لقوتها؟ أم هي مشكلة لضعفها؟ هل هي مشكلة لأنها مصدر قلق و هم و خوف بالنسبة إلى الرجل، أم أنها مشكلة كائن وظيفي فعّال و بالتالي فهي مصدر خطورة هلى الرجل؟ و في هذه الحالة يصدق نابليون في قوله : ((إن اليد التي تهز السرير هي اليد التي تهز العالم))¹ أم هي مشكلة ذهنية أريدت لها أن تثار لتحقيق أغراض متعددة سياسية ، سوسولوجية، و حتى جنسية.

مكانة المرأة في الحضارات و الأديان :

المرأة في التاريخ القديم: يشهد التاريخ أن ليس للمرأة تاريخ منفصل عن الرجل، بل أنهما صانعا تاريخ مشترك. و بهذا تصبح قضية المرأة جزءا لا يتجزأ عن قضية المجتمع كله، و معركتها ملتزمة مع معركة تحرير الأرض و الإنسان، و تسخير الموارد تسخيرا يحقق الرفاهية للجميع، رجالا و نساء، من خلال مشاركتهم الفعالة من صنع حاضرهم و مستقبلهم و مستقبل أجيالهم من بعدهم².

فإذا ما رجعنا إلى أقدم ما نعرف من عصور التاريخ، رأينا المرأة ذات مكانة و شأن. لقد شاركت الرجل حياته و كفاحه منذ بداية المجتمع الإنساني، ثم ما لبثت أن ظهرت عوامل جديدة في حياة الإنسان مع ظهور الحضارات القديمة، أدت إلى افتراق الرجل عن المرأة في العمل و النظرة و الحياة، بحيث لم يعد يصح القول ((أن تاريخهما تاريخ واحد)) . لقد كانت الأنثى تستمد من الطبيعة حقيقتها، و كانت الطبيعة تتبع في دورتها من الخصب و النساء، دورة الأنثى في الخلق و التكوين. و لذا فقد كان هذا العالم الواسع متجسدا في الأنثى المفكرة و المعطاءة، العالمة و الحكيمة الكاهنة و العرافة.....

فمنذ جذور التاريخ، كانت العلاقة بين (أنكيو) الرجل، و المرأة زوجته، نموذجا أسطوريا للعلاقة بين الرجل و المرأة في ذلك الحين. فالممارسة الطبيعية (...) التي نمت بينهما و التي كشفت بصيرة (أنكيو) فجعلته حكيما، و أبعدت عنه رفاق الأمس من الحيوان، لم تكن العلاقة الطبيعية التي يمارسها الإنسان كل يوم مع زوجته، بل كانت رمزا للكفاح الذي بذلته المرأة من أجل تعريف الرجل إلى العوالم التي اكتشفها قبله، و لجذبه من دائرة الجوع و الشبع المغلقة التي يشترك فيها مع الحيوان، إلى دائرة الجمال المفتوحة على العالم الآخر، العالم الإلهي...³

لقد قدم (باخوفن) (1815 - 1887)، صورة عن المرأة في المجتمعات القديمة في كتابه " حق الأم " ، الذي يشير فيه إلى المكانة التي كانت تحتها المرأة، و ما كانت تتمتع به من قوة سياسية و قانونية، و سلطة اجتماعية. و يتمثل ذلك في الأساطير الدينية التي تعتبر ذاكرة الشعوب و التاريخ للتطور الإنسانية.

فمنذ أن صنع الإنسان أدواته الحجرية الأولى، و صنع تماثيل آتة، و بنى مساكنه، كانت المرأة إلى جانبه. ففي حقول القمح الأولى، و في المدن الأولى، و في المعابد... إلخ ، وقفت المرأة إلى جانبه، يدا بيد بعد أن لهثت معه وراء اللقمة النادرة⁴.

المرأة في ديانات القديمة " الآلهة الأنثى ": لقد بدأت كافة الديانات القديمة بالآلهة الأنثى التي لعبت الدور الأكبر في الوصول إلى الحضارات القديمة، التي نبذتها - فيما بعد - كما سنرى لقد كانت آلهة الأنثى تمد الإله الذكر بالحكمة الأصلية، هذه الحكمة التي كانت سر النجاح " زيوس " إله الحكمة عند اليونان . فزيوس، لم يكن يملك حكمة أصلية، بل إن حكمته كانت مستمدة من الآلهة " ميتس " ، و هي الأولى زوجات زيوس، التي وصفها " هزيود "، صاحب " أصول لآلهة " ، بأن لها من حكمة أكثر مما كان لكل آلهة مجتمعة....

و لتأكيد دور " الآلهة الأنثى " في نشر الحكمة و الفلسفة، كانت كلمة صوفيا التي أطلقت على الفلسفة (فيلوصفيا)، إنما هي من آلهة الحكمة " صوفيا ". و تشير الدراسات الفنية إلى هذا الجانب عندما تصور المرأة صوفيا و هي جالسة و على رأسها تاج على هيئة ثلاثة رؤوس أنثوية، و حولها الفنانون و الأدباء و الفلاسفة يستمدون منها الوحي....

و كما كان للمرأة دور بارز في مجال السيطرة الدينية على عالم يموج بالأسرار و الخفايا، إلى جانب دورها الآلهة الأم، كانت في وقت نفسه، هي التي تهب القمح و تمنح الخصب و الفيض للطبيعة. و قد صورت تماثيل " الآلهة الأنثى "، كأبهي سيدة للطبيعة في تاريخ مصر القديمة تحت اسم " إيزيس ". و يظهر زوجها " أو زيريس " إلى جانبها، أخوا، و زوجا ، و حبيبا، و شريكا في خصائص الخصب، و إليها أسيرا لدورة القمح و الإنبات. فهي سيدة القمح، و أول من اكتشف الزراعة، و سيدة الخبز و حقل القمح....

و في أرض الرافدين، كانت الأجرام السماوية، كالشمس و القمر، في دورتهما الطبيعيين تبجل في شخص (عيشتار)، التي كانت ترمز إلى الأرض و الأم⁵.

و كانت الألواح السومرية تطور الآلهة الأنثى (شمس) إلهة العدالة و المساواة في (سومر) بلاد الرافدين، و هي تمر في مركبة حول العالم لترى أعمال الناس فوق، و ترسل أشعة نور، و تقف عن قلوب الحزينة، و تهب شرائع و حياة للضعفاء و المظلومين، و تنتظر الأسرار و ترهبهم. و كانت تتادي بكل ما هو أخلاقي، و تدعو إلى قيم الحق و العدل و الحرية. و كانت أول وثيقة في التاريخ تذكر الحرية باسمها السومري (أمارجي). و قد وجدت في سومر، و هي تعني حرفيا (العودة إلى الأم). فالمجتمع " الأمومي " الذي يعتبر من أقدم الأشكال العائلة، و الذي بنى الأسس للحضارات القديمة، كان يقوم علاقا قيم الأنوثة، و مكانة الأم في تطور الإنسان

و فيما يتعلق بدور الأنثى في تجديد المعالم الأساسية لسياسة الدولة، و دورها في تأكيد الحق و الحرية و العدل، و المساواة، تشير الأساطير و الدراسات التاريخية إلى دور الذي أدته الأنثى في عهد " الأخناتون " في القرن الرابع و العشرون قبل الميلاد كانت " ماعت " إلهة العدالة و المساواة، و كانت كل الآلهة تعيش على عدالة " ماعت " و كان " أخناتون " يذيل إسمها الملكي في كل أثار الدولة بهذا التوقيع: (العائش على عدالة ماعت) . (إنني أعيش على الصدق، و أتزود من صدق و عدالة ماعت)...⁶

أ - المرأة في الحضارات:

مقدمة: إن تأليه المرأة في العصور الأولى من التاريخ، يعود من جانب - إلى ما كانت تتمتع به بعض النساء من صفات شخصية نادرة، و إلى كونها - من جانب آخر - مصدر الخلق و مورد الحياة من جسمها و حليبها، و عطفها و حنانها، للرجال و النساء على السواء، في وقت لم تكن ثمة حاجة ملحة إلى قوة الرجال لعدم وجود المشاحنات و الحروب و الصراعات على الحكم و الثروة التي استوجبتها الحضارات الأولى ...

و على العموم، فإن أكثر الحضارات الأولى قد ألهمت القوة، و لم تكن المرأة قوية فاستغنت عنها شيئاً فشيئاً، إلى أن أنكرت كل حق لها، بل كثيراً ما كانت تعد سلعة كسائر السلع، تباع و تشتري، و تورث، و تهدي للأعيان، و تعد كأحدى الوسائل لإكرام الضيف، أي تحولت إلى عبدة و أمة...⁷

لمحة عن المرأة في الحضارات القديمة: المرأة في الحضارة اليونانية: (من المعروف أن ما يسمى بالحضارة اليونانية و الحضارة الرومانية، أنهما الأساس لما يسمى حالياً، بالحضارة الأوروبية).

فالمرأة عند اليونان، مهد الحضارات الفلسفية، و راعية الحق و القانون، لم يكن لها أي نصيب من علم أو ثقافة أو حق ... فهي ((البلية عند الآلهة، و وجه النحس، و النكبة المتوارثة خلف المظهر الكذاب ...)) . و كان شعارهم الذي تداولوه من قانون حمورابي: ((إن قيد المرأة لا ينزع، و نيرها لا يخلع)) .

في هذه الشريعة التي انتشرت في بابل، تعتبر المرأة كالماشية، يمتلكها الرجل و يتصرف بها كما يشاء . و أقصى ما أعطته هذه الشريعة للمرأة من حق: أن فرضت على من يقتل بنتاً لرجل أن يسلمه القاتل ابنته ليقتلها، أو ليتملكها إن عفا عنها.

و كان الشاعر ' هزيود " يظن ((أن المرأة منحت عقلاً كعقل الكلا، و أخلاقاً كلها ختل و دهاء، و من ثم لا حرية و لا مكانة لها في المجتمع)) . و الفيلسوف (أرسطو) نفسه، كان يعيب على أهل اسبرطة منح النساء حقوقاً في الميراث و الحرية، و يعزو سقوط اسبرطة إلى هذه الحرية...⁸

و في التشريع الآشوري، كانت المرأة تجبر بعد موت زوجها، أن تتزوج بأخيه، أو من أحد أبنائه من زوجة أخرى ... و لم يكن للآباء أي حق في تزويج بناتهم، و ليس لها الحق في أن تتزوج ممن تشاء، بل كان الأمر في ذلك للكهان الذين تجمع لديهم العذارى البالغات سنوياً فيبعنهن في الأسواق بالمزاد العلني... !و حتى في مدينة أفلاطون الفاضلة، كانت المرأة تشبه بـ " الشجيرة المسمومة "، و هي ((كائن شرير و مصدر النكبات و الأزمات في العالم)) .

و من الظواهر التي تنبئ عن احتقار المرأة، إغارة الزوجات. ففي العصر الذهبي في اسبرطة، كان الأزواج يعيرون زوجاتهم لصنف من الرجال الأقوياء و الأذكىاء، لكي يتجنبن أبناء أقوياء و نجباء... و في هذا المجال يسخر (ليقورع)، الذي تعتبر قوانينه و حيا إلهياً، من صفة الغيرة على الزوجة فيقول: ((إن من أسخف الأشياء أن يعني الناس بكلاهم و خيولهم، فيبذلون جهدهم و مالهم ليحصلوا منها على سلالات جيدة، بينما يبغون زوجاتهم بمعزل عن تحسين إنجاب أبنائهم، و قد يكونون ناقصي العقل، ضعفاء أو مرضى...)) .

و كانت المرأة عنده لا أهمية لها، خلقت فقط لقضاء حاجة تافهة للرجل، ليس إلا...⁹

و المرأة عند الرومان، كانت تعتبر حيوانا نجسا، لا تدخل المعابد في الدنيا، و تحرم من الجنة في الآخرة. و في أوج الحضارة الرومانية، كانت الجوارى و القيان الطليقات، تنلن من الاهتمام أضعاف ما تناله حرائر النساء من الأزواج و الأقباء. و يقول المرحوم العقاد: ((و ليس لهذا الاهتمام من غاية سوى أنه شعور يتقارب فيه الأحياء من الناطقين و غير الناطقين...)).

و في بلاد فارس، كانت المرأة حقا للرجل و ملكا له، يتصرف بها كما يشاء، و يتصرف بمالها و جميع شؤونها. و له الحق بقتلها و الحكم عليها بالموت... و ليس لها الحق بالتعلم، و لا بالخروج من البيت. و قد انطلقت من بلادهم جذور الحرم و الحريم. و لم تتمتع بالحرية من النساء سوى الجوارى و الأقنان و المحظيات. أما في بلاد الصين، فلم تكن وضعية المرأة بأحسن حالا منها في سائر الحضارات القديمة. فمولدها نكبة و شؤم على أهلها و على جميع من يراها. و لا حق لهما بالميراث، لا من مال أبيها، و لا من مال زوجها. و هي بمثابة المتاع للبيع و الشراء.

و المرأة عبدة للرجل في الهند. فحسب القوانين الهندوسية، إذا مات زوجها، لا بد لها من أن تبقى دون طعام حتى تموت، أو تدفن معه حية... و أن الوباء و الموت و الجحيم و السم و الأفاعي و النار خير من النساء... ! و يقول (مانو): ((إن الزوجة الوفية، ينبغي لها أن تخدم سيدها كما لو كان إلهها، و يقتصر دورها في الحياة على توفير المتعة للرجال)). و قد سلبت شريعة (مانو) المرأة كل حقوقها. فهي تابعة لأبيها أو زوجها، أو أي رجل من أهل زوجها. و من العادات العرفية، أن الزوجة المخلصة، إذا ما توفي زوجها، عليها أن تتقدم لكي تلقى بنفسها في النار قبل أن يحرق جثمان الزوج. و قد توصلت هذه العادة الشنيعة حتى القرن السابع عشر، إلى أن منعها الإنكليز¹⁰.

و هناك حضارة وحيدة بين الحضارات القديمة، أعطت المرأة حقوقها، و هي الحضارة المصرية. فعندما زار "هيرودوت" مصر، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أبدى دهشته من حرية المرأة فيها، خاصة و أنه جاء من أوروبا، البلد الذي لم تكن المرأة فيه تعرف طعم الحرية. و لكن الزحف الروماني قد قضى على هذه الحقوق، و أحل محلها الفكر الروماني !

ب- المرأة في الديانات السابقة للإسلام: لقد حرّف الذين اضطلعوا في تسجيل النصوص الدينية لتعاليم الديانات السابقة للإسلام إرادة الخالق في تقدير المرأة حق قدرها. فمن اعتبارها من قبل الخالق مصدر الحياة للكائنات البشرية، من ذكر و أنثى، إلى اعتبارها مصدر الإثم و الذنب، تماشيا مع ما ذكرناه سابقا من هضم حقوقها و إصاق أشنع الصفات بها في الحضارات القديمة.

ففي الديانة الهندوكية، تعتبر المرأة إنسانا قاصرا لا أهلية له، و تمنع منعا باتا من تعلم كتبها المقدسة لعدم أهليتها.

و حضرت الديانة البوذية على كل من يطمح إلى النجاة في الحياة، أن يتصل بالمرأة. و من تعاليمها: ((لا سبيل لمن اتصل بالمرأة أن ينجو في الحياة)). أي فرضت عليه البتولة...

و اعتبرت الديانة اليهودية المحرفة المرأة مصدرا للإثم، فحملتها التوراة غواية آدم و إخراجها من الجنة، و جعلته يتملص من المسؤولية، فتقول على لسانه: ((هذه المرأة التي جعلتها معي، هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت)). و قد هول المعادون للمسيح هذا الأمر حتى أباحوا العدوان عليها بدعوى التضحية لتخليص البشرية من اثم الخطيئة الأولى... و ما قصة آدم و حواء و الضلع الأعوج إلا أسطورة تاريخية سخرت لتأكيد هذا الإرث الثقافي بالاستخفاف في

المرأة و التسلط عليها¹¹ و ظلت البشرية تتوارث هذا الإرث إلى أن أبرأها القرآن الكريم من لعنة الخطيئة الأولى، و حملها إلى سيدنا آدم عليه السلام وحده: ﴿ ثم اجتبى ربه فتاب عليه و هدى ﴾ (طه - 122).

و المرأة في العهد القديم أمر من الموت، و إن الصالح أمام الله ينجو منها: ((رجلا صالحا بين ألف، قد وجدت، أما المرأة صالحة بين هؤلاء، فلم أجد ...))

و هي تمثل الرجس و الإثم و النجاسة. فاعتبروا المرأة نجسية أيام الحيض. و أورد (ابن كثير) في تفسيره 1 - 258 : ((إن اليهود كانوا إذا ما حاضت المرأة منهم يؤاكلونها، و لا يجتمعون معها في البيوت، و يعتبرون كافة الأمتعة التي تجلس عليها نجسة)).

و حسب الأصحاح - 27 من سفر العدد، فإن البنت لا تترث في حال وجود أخ لها ((أيما رجل مات، و ليس له ابن، تنقلون ملكه إلى ابنته)) . و لذا كان عجبا أن يورث أيوب عليه السلام بناته مع بنيه... و كانت البنت، يوم زفافها، تحاط و هي مستلقية، بكار عائلتها و عائلة زوجها، للتأكد من عفتها¹² .

و في الكنيسة المسيحية، و التي استخدمت أناجيل عديدة كنصوص دينية، حرّف الدين المسيحي عن قواعده، و غالى رجالها في امتهان كرامة المرأة، و إهدار قيمتها فالمرأة التي أنجبت المسيح عليه السلام، و بجلها سبحانه بحمل مسؤولية ولادته و تربيته وحدها، مريم العذراء، المصطفاة التي ((انزوت به مكان قاصيا تهز جذع النخلة فيتساقط عليها طبا ناديا))، هذه الأنثى، اعتبرت بأنها ((باب الشيطان، و سلاح إبليس للفتنة و الغواية، و ان جسمها من عمل الشيطان، و ان الشيطان مولع بالظهور في شكل أنثى)) . لقد قال القديس: (لويولا): ((إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، و مشوهة لصورته)) . و قال القديس (سوستام) : ((إنها الشر لا بد منها و آفة مرغوب فيها، و خطر على الأسرة و البيت، و محبوبة فتاكة، و مصيبة مطلية مموهة)) . و المرأة حسب آراء فيلسوف الكنيسة (توما الأكويني) ((كائن عرضي، جاء إلى الوجود عن طريق العرض، لقيمة لها و لا شأن و هي جسد بلا روح)) . و حسب رسائل قديسهم و رسلهم ((المرأة رجل ناقص))...¹³

و تفرض كافة التوصيات الإنجيلية على المرأة عبارة، ((ليكن الرجل سيدك ..))

((أيتها المرأة، لتكوني خاضعة لزوجك، كما أنت عبدة للرب، لأن الزوج هو سيدك، كما أن المسيح هو سيد الكنيسة)) .

إن تمتع الرجل بقوى تقدرها الكنيسة، يزيل كل طريقة إنسانية للتعامل بين الرجل و المرأة. فلوسائل العديدة الموجودة تحت تصرف الأمر البابوي الرباني، ترغم المرأة على الخضوع الكامل لسلطة الرجل، إنها حسبهم " إرادة الله " ... !

و حدث في القرن الحادي عشر، أن المحاكم الكنسية سنت قانونا ينص على أن للزوج أن يعير زوجته إلى رجل آخر مدة محدودة. و في سنة 1790 بيعت امرأة بشلنين، لأنها أثقلت بتكاليفها على الكنيسة التي كانت تؤويها. و ظل بيع الزوجة جائزة في القانون الإنكليزي حتى عام 1805 . و في عام 1931، باع إنكليزي زوجته بـ 500 جنيه، فحكمت عليه المحكمة بالسجن مدة عشرة أشهر.¹⁴

و يقول الفيلسوف الإنكليزي (هربيرت سبنسر) في كتابه " وصف علم الاجتماع " (1890 - 1903)، إن الزوجات كانت تباع في انكلترا، فيما بين القرن الخامس و الحادي عشر)) . و لا يزال في بعض الأرياف الإنكليزية رجال يبيعون نساءهم بثمن بخس... ! و الأغراب من ذلك، أن البرلمان الإنكليزي أصدر قرارا في عصر (هنري الثامن) ملك إنكلترا، يحظر على المرأة أن تقرأ " العهد الجديد " ، أي يحرم عليها قراءة الأناجيل، و كتب رسل المسيح، كما كانت عليه المرأة في عهد الديانة الهندوكية.

و قد عارضت الكنيسة تخدير المرأة في حالات الوضع، زاعمة أن الله قال لحواء: ((لسوف تُلدين بالآلام)) ... ! فهي المسؤولة، حسبها، عن إغواء سيدنا آدم وإخراجه من الجنة.

هذا دون الكلام عن أوضاع المرأة في عهد لويس الرابع عشر التي لم تكن تزيد عن كونها مجرد عبدة ليس إلا، كم يؤكد ذلك كبار المؤرخي. و يكفي لمعرفة ذلك، الرجوع إلى كتاب الذائع الصيت للسيدة شيدر ناكور " L'alliée du roi"، الذي قد له المؤرخ الشهير و لأستاذ في (Collège de France)، فرناند بروديل. و لا يسع القارئ لهذا الكتاب، إلا أن يصاب بالهلع، لشدة القساوة التي كانت تعانيها المرأة في حياتها في ذلك العصر، و يبدو، حتى أن عبقرية موليير الفذة، لم يكن بوسعها أن تغير من أوضاعها شيئاً...

و يوجد بين الأمريكيين أقوام يتبادلون زوجاتهم لمدة معلومة، ثم يسترجع كل واحد منهم زوجته المعارة. و لم يقتصر المر على إعارة الزوجات، بل تجاوزه إلى بيعهن، كما يبيع البوي دابته، أو شيئاً من متاع بيته... !

أما في فرنسا، فالاجتماع المشهور الذي عقد في نهاية القرن الخامس عشر، و دار فيه الحديث عن المرأة ((أ هي إنسان أم غير إنسان)) ؟ ! و مع اتفاق الحاضرين على إنسانيتها، إلا أنهم استدركوا: ((أنها خلقت لخدمة الرجل))¹⁵ و حسب البروفسور آلان باكر، ((لقد غالت المسيحية بالقسوة و الظلم على المرأة، لدرجة أن الكنسية الكاثوليكية قامت، تحت غطاء رعاية الخلاق و العفة و الدين، في فرنسا وحدها، ما بين القرن الرابع عشر و السابع عشر، بحرق ما يزيد على المليون امرأة بحجة وضمهن بالساحرات)) . و في عام 1904 ، لم تغير الثورة الفرنسية التي اندلعت منذ عام 1789 و القوانين البابوية من وضع المرأة شيئاً، و لم يسمح لها إلا بالرقص و الغناء.

و في عام 1938، أصدرت الجريدة الرسمية الفرنسية قراراً يمنع المرأة من توقيع عقد مالي، و من حصولها على الإرث. و هكذا ترجمت مقولة نابليون: ((إن الطبيعة هي التي جعلت من نساتنا إماء لنا ...)) !! و منها استوحيت آراء فلاسفة فرنسا العظماء أمثال: (بلزاك، و بردون)، إلى أن جاء قرار المنظمة الدولية للأمم المتحدة عام 1967، يدعو إلى القضاء على كل تمييز بحق المرأة، و هو ما منحها إياه الإسلام قبل اثني عشر قرناً ... !

و حسب الكاتبة الألمانية (هونكة) في كتابها ((شمس الله تشرق على الغرب)): لقد ظلت الكنيسة على معاداتها للمرأة، إلى أن توصل الغرب إلى قهر هذه العداوة عن طريق صلته بالعالم الإسلامي، و الذي كان يعتبر، في ذلك الحين، أعجوبة غير قابلة للتحقيق))... إلا أن المبالغة في ردة الفعل التي ظهرت في الغرب، و تحرير المرأة إلى درجة الانفلات، و مساواتها بالاضطلاع في الأعمال التي يقوم بها الرجل، حتى التي لا تتماشى مع طاقتها الجسدية، إلى جانب انفرادها بالأعمال المنزلية، و تربية الأطفال، مع ذلك كله، أصبح التحرر أشد من العبودية.

و زاد الطين بلة أن اقترن عملها إلى جانب الرجل بالابتزاز الجنسي. و بهذا الصدد، تقول الكاتبة (لين فارتي) في كتابها : الابتزاز الجنسي " : ((إن تاريخ ابتزاز المرأة العاملة جنسياً قد بدأ منذ ظهور الرأسمالية، و منذ التحاقها بالعمل. و قد ساهم ذلك في قتل أعداد لا تقدر من النساء في القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين، عن طريق الأمراض التناسلية أو الطرد، و الجوع، و المرض، و الارهاق العصبي الناتج من ذلك)) . و هي كزوجة، لا يوجد من يعيها إن لم تعمل، حتى أن الأبوين يتخليان عنها إذا بلغت السن القانونية¹⁶.

إن الإسلام هو الرسالة التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور و قد أعاد المرأة كرامتها و آدميتها لأنها خلقت من نفس معدن الرجل و في هذا يقول النبي (ص) ((إنما النساء شقائق الرجال) رواه الخمسة.

كما أبرز الإسلام مكانته في عدة سور من القرآن الكريم، منها سورة النساء التي تبثدئ بقول الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منها رجالاً كثيراً و نساء ﴾ كما كان واضحاً في

الهدى النبوي إذ روى البخاري عن النبي (ص) قوله : ((الناس سواسية كأسنان المشط)) كما قال النبي: ((فلو كنت مفضلاً أحد لفضلت النساء)) و الحديث رواه الطبراني و البيهقي و قد حسن الحافظ اسناده في الفتح - نيل الأوطار¹⁷.
و لم يكن للمرأة حقوق و لا شخصية إلا ما سمح به من خلال أبيها أو زوجها، فجاء الإسلام و شرع القواعد التالية:

أولاً: المرأة تحتفظ بشخصيتها القانونية المستقلة و تمثل في احتفاظها بأسمائها و اسم أبيها و عائلتها و حفظ حقها في التملك و التصرف في أموالها الثابتة و المنقولة بغير إذن من أب أو زوج و لو ارتضت الزوجة أن تفقد شخصيتها القانونية و ان تنتسب إلى أسرة زوجها و تدعى اسم أبيها، فلا يبيح لها الإسلام ذلك كما لا يبيح للرجل قال الله عز وجل: ﴿ ادعوهم لأبنائهم هو أقسط عند الله ﴾ و بالتالي لا إكراه فيما هو دون ذلك .

ثانياً: كما ساوى الإسلام بين الرجل و المرأة في حق الطعن بانعدام دستورية قوانين أو اللوائح و الأوامر كفى المرأة المسلمة شرفاً، أن اتعرضت سيدة من سواد الناس على قرار أكبر و أقوى حاكم في عصره، هو امير المؤمنين عمر بن الخطاب، إذ كان قد أصدر قراره بمصادر ما زاد على أربعين أوقية من مهور النساء ليمنع بذلك المغالاة في المهور، فاعترضت عليه سيدة كانت تجلس في صفوف النساء بالمسجد و احتجت بقوله تعالى ﴿ و إن أتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ فرجع الخليفة عن قراره و قال أصابت المرأة و أخطأ عمر .

رابعاً: لم يكتف النظام الجاهلي بسلب الحقوق المالية للمرأة بل سلب حقها في أخص خصائصها و هو حقها في اختيار زوجها، فجاء الإسلام و أبطل هذا العرف الفاسد، فمكن الفتاة من ممارسة حريتها بعد أن وضع هذه الحرية في نطاقها الصحيح، تلك التي خولت الفتاة أن تذهب إلى النبي (ص) لتطعن على تصرف أبيها و لم يكن التصرف ضاراً بها و لكن أرادت أن تعلم النساء أن ليس للأباء من الأمر شيء¹⁸.

خامساً: أما الطاعة فقد كانت طاعة مطلقة أي لذات الرجل أبا كان أو زوجاً أو حاكماً فوضع الإسلام مبدأ الطاعة في نطاق منهاج رشيد يلتزم به الرجل و المرأة و الحاكم و المحكوم فقال رسول الله (ص) ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)) كما قال : ((لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف)) رواه مسلم، فما خرج عن حدود الله فلا طاعة فيه، و ما كان حدود المعروف فالطاعة فيه واجبة و هي طاعة الله خالق هذا المعروف و ليست طاعة لذات الأمر به في هذا ما سجله الإمام الغزالي في كتابه المستصفى إذ قال : ((لا حكم و لا أمر إلا الله، أما النبي و السلطان و السيد و الأدب و الزوج فإذا ما أمروا أو أجبوا، لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب الله تعالى طاعتهم)) .

سادساً: وضع الإسلام قضية المساواة في نطاقها الصحيح، فساوى بين الرجل و المرأة فيما تماثلا فيه و في هذا يقول النبي (ص) ((إنما النساء شقائق الرجال)) رواه الخمسة، يقول الله تعالى: ﴿ و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ .
أما ما اختلفت فيه الطبيعة و تكوين كل منها فالمساواة فيه ظلم و جهالة و من هنا خص الله المرأة بالأومومة و ما تعلق بها، كما خص الرجل بالقوامة و ما يتعلق بها من حق قال الله عنه ﴿ و للرجال عليهن درجة ﴾

تلك القوامة التي ترجع إلى اختلاف التكوين الجسماني بين الرجل و المرأة، فقد جعل الله الرجل أكثر تحملاً للمشاق و المصاعب، و من ثم كلفه كفالة المرأة و حمايتها و تحمل جميع نفقاتها و في هذا قال الله تعالى: ((الرجال قوامون على النساء، بما فضله الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم))¹⁹.

سابعاً: الحرية في الإسلام مصنونة كصيانة العقيدة، فلا تكره الجماعة المسلمة غير المسلمين على اتباع دين الإسلام قال تعالى (لا إكراه في الدين) و قال (و قل الحق من ربكم فما شاء فليؤمن و من شاء فليكفر) و لكن الاعتداء على المقومات الأساسية للمجتمع و في مقدمتها القواعد الأخلاقية يقاثل عليه المجتمع منعا من الفتنة قال تعالى ((و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين لله)) و الدين هنا بمعنى النظام العام.

ثامنا: لا توجد قيود على المرأة المسلمة إلا القواعد الأخلاقية المعروفة و هي ليست إنتقاصا من مكانتها فقد كان للمرأة المسلمة من القدر و المكانة و العلم، ما جعلها تعترض على رأي الرجال إذا أخطئوا و تردهم إلى الصواب، و لم يحل بينهما و بين ذلك قيد من القيود المزعومة التي يدعى ضربها على المرأة المسلمة في كل ناحية من نواحي حياتها²⁰ .

لقد تعددت و اختلفت وضعية المرأة في المجتمعات، و يعود هذا حسب اعتقادنا إلى تعامل هذه المجتمعات مع المرأة لا كذات واعية مسؤولة على ما يصدر منها من أفعال و أقوال، و إنما كأنتى، و هنا رمز الأنثى يحمل معنى قديما فهي رمز للجنس، و الشهوة، و المتعة، و هي أيضا رمز للمرأة الخادمة للرجل و على الرغم من أن الإسلام أنصف المرأة إلا أن هناك من حاد عن الفهم الصحيح للدين بخصوص مفهوم المرأة مما جعلها عند بعض المسلمين عنصر في حياة الرجل لا كإنسان ذو سيادة. و لم يكن العصر الحديث أفضل حالا و هذا على الرغم من المستوى الثقافي و الاجتماعي الذي وصلت إليه، فهي تبدو فريسة اتجاهين متناقضين فهي من جهة مدفوعة بنزعة فردية عمياء تجعلها تخرج عن المجتمع و تخالفه، و هي من جهة أخرى مدفوعة بنزعة جماعية تجعلها عاجزة عن العيش دون الالتصاق بالجماعة و الاعتماد كلي عليها²¹.

و حتى تكون المرأة في مأمن من كل محاولة في التقليل من شأنها أو استقلالها في أغراض تحط من قيمتها كذات مفكرة حاملة و طموحة، و حتى تتفادى التلاعبات السياسية حول المرأة عليها و الحالة هذه أن تتسلح بسلاح العلم الذي هو لغة العصر أي لغة البرهان و المنطق لا لغة الحلم و الشعر.

الهوامش:

- 1- سمير عبده، المرأة بين التخلف و التحرر، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، 1980، ص07 .
- 2- نعيمة شومان المرأة منذ العصر الحجري و المرأة في الإسلام كإنسان، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2011، ص 8 .
- 3- المرجع نفسه، ص 9
- 4- المرجع نفسه، ص10
- 5- المرجع نفسه، ص11
- 6- المرجع نفسه، ص13
- 7- المرجع نفسه، ص15
- 8- المرجع نفسه، ص16
- 9- المرجع نفسه، ص17
- 10- المرجع نفسه، ص19
- 11- المرجع نفسه، ص20
- 12- المرجع نفسه، ص21
- 13- المرجع نفسه، ص22
- 14- المرجع نفسه، ص23
- 15- المرجع نفسه، ص25
- 16- المرجع نفسه، ص27
- 17- سالم البهنساوي، مكانة المرأة بين الإسلام و القوانين العالمية، الجزائر، دار النشر، ب ت ، ص 42
- 18- المرجع نفسه، ص 44
- 19- المرجع نفسه، ص 45
- 20- المرجع نفسه ، ص 46
- 21- سميرة عبده، المرأة العربية بين التخلف و التمرد، ص 18 .